أولاً : أصـــــول

١- رحلة الثقافة العربية : من الموسوعية إلى التخصص

٢- الأصل فى ثقافتنا : الحوار مع الآخر

٣- نحو التأصيل لمفهوم المشترك الثقافي

٤- حضور الثوابت فى سياق المتغير

٥- حرية الإنسان فى الثقافة العربية

٦- العرب ونهضة الحضارة الأوربية (صراع أم حوار؟)

٧- ثقافتنا فى عالم متغير

١

رحلة الثقافة العربية
من الموسوعية إلى التخصص

من الملامح البارزة المميزة للثقافة العربية طول رحلتها التاريخية، التى تعكس أصالتها وعمقها وإنسانيتها وقدرتها على التواصل والبقاء بعيدا عن الانقطاع المعرفي، أو التراجع الفكرى بين أبنائها إلا من خلال فترات تمثل جملا اعتراضية فى تاريخها بحكم الهجمات الاستعمارية الشرسة، وما تحمله بين جنباتها من روح المؤامرة التى تستهدف – غالبًا – التخلص من كل ما هو إنسانى وأصيل وعريق من منطلق الكراهية حينا، والحقد فى معظم الأحوال.

ومنذ أنشأ هارون الرشيد دار الحكمة فى بغداد عاصمة الخلافة ودار السلام ازدهرت ثقافتنا العربية عبر كل مسارات الفكر ومساقات العلوم التى قام على تأسيسها علماء أفذاذ ألفوا، وصنفوا، وجمعوا وشرحوا، وحللوا وفسروا، ونقدوا وترجموا، وأضافوا وابتكروا، وجددوا وشاركوا وأبدعوا، فكان لهم فضل عظيم فى سياق التحضر والتقدم العلمى حيث علموا الدنيا من حولهم أصول الفكر، ومناهج الابتكار والاختراع، وسبل الإبداع والتفوق على الذات، والتثاقف مع الآخر.

ولا يقول قائل إن فى هذا المبالغة أو ادعاء أو مباهاة أو انبهارا أو افتعالا، أو تزيدا، فالحقيقة التاريخية شاهد أمين على صدق ما نردده حول تميز الثقافة العربية برحابتها وقيمها الإنسانية الرفيعة، التى فتحت نوافذها على العالم لتتلقى كل

المشاركات الفاعلة بعيدًا عن منطق التعصب أو العزلة أو الإغلاق أو التقوقع وأو النرجسية.

وبعيدًا عن باب المدح والثناء والإعجاب بثقافتنا – وإن ظل هذا حقًّا لنا وواجبا علينًا – تظل شواهد التاريخ دالة بذاتها على منهجية رحلتها عبر الموسوعية التى تميز بها علماؤنا الكبار، صحيح أننا نردد من الأسماء ما اقترن بالتخصصات العلمية المحددة، ولكن الطابع الموسوعى كان أصلا لحركة الفكر بوجه عام، وإلا فكيف نصنف الجاحظ مؤرخًا من خلال مؤلفاته للعصر العباسى فيعرف مواقع خلفائه ووزرائه وكتابه وشعرائه معرفته ببخلائه وسفهائه وقيانه وجواربه، ثم معرفته ببلاغته وبيانه ونقده وعلمائه وعلومه وفكره وشعرائه ومبدعيه، ويمتد الأمر إلى التعرف على حيوانه وحشراته وصحرائه، ومجالسه ومناظراته، ومساجلاته ومطارحاته، وخصوماته، ومعظم مشكلاته. فماذا لو كان الجاحظ ينطلق من منظور التخصص فهل كان من الممكن أن نتلقى بيانه وتبيينه تلقينا لرسالة القيان أو البخلاء أو الحيوان أو غيرها من مصنفاته المعروفة.

ولم يكن الجاحظ بدعًا فى هذا بقدر ما كان نمطًا سائدًا وسائغًا، فحين نذكر الشيخ الرئيس ابن سينا لا يسهل علينا تصنيفه فيلسوفًا، كان أم شاعرًا أم مؤرخًا أم ناقدًا أم طبيبًا أم عالم قانون إلا أن يكون جامعًا كل هذه، وتلك فى مناشط إنسانية غاية فى الرقى والوعي، فإذا به يضع فى الطب كتابه "القانون" ويؤلف فى القانون كتابه "الشفاء"، وبينهما من الدلالات الكثير على تلاقى فروع المعرفة وتكامل أبوابها، بعيدًا عن الانحسار فى دائرة التخصص التى قد تفقد المثقف أشياء كثيرة إذا لم نتعامل معها بحذر ودقة منهجية.

هكذا كانت العقلية العربية باتساع آفاقها الرحبة قادرة على تحقيق المشروع الثقافى العربى المتكامل بشكل تلقائى وعفوى دون تعقيد أو إملاءات أو توجيهات أو افتراضات، فكان المسار طبيعيًا لمنظومة الفكر العليا بهذا التجانس، وذلك التلاقى والتوحد الذى يعكسه المثالان اللذان أردنا منهما فقط إثبات الموقف، والأشباه كثيرة ومتعددة فروع تلك الثقافة.

وتزداد سعة الأفق العربى حين ينفتح على الآخر من خلال قلم الترجمة الذى شهدته دار الحكمة بجوار علوم الأوائل، حيث شهدت بغداد والكوفة والبصرة شوامخ الرواة والعلماء ينزلون إلى البادية لجمع المادة الإبداعية من أفواه أبنائها، أو يستقبلون من يرحل من البادية إلى المدن ليدونوا ما حفظته الذاكرة يحفظه فى أمهات الكتب فى عصر التدوين، وإلى جوار كل هؤلاء كانت مدارس الترجمة من العربية وإليها عبر اليونانية والسريانية والفارسية والهندية. ولولا هذا الانفتاح والقبول للآخر لأصيبت هذه الثقافة بالجمود والعقم والشلل، ولفقدت إبهارها الذى ملأ الدنيا القديمة شرقًا وغربًا فى إشراقات فكرية رائعة.

أما وقد تميزت ثقافتنا بكل هذه الملامح وأشباهها، فقد طالت رحلتها واستمرت على الرغم من العقبات والصعوبات التى واجهتها فمثلت خطوبا وكوارث كبرى، ولكنها تجاوزتها، وظلت بشموخها قادرة على البقاء، حتى فى أشرس مراحل المد الاستعمارى فى الأرض العربية التى انتصرت بإرادة شعوبها وقادتها.

واستكمالا لمرونتها وحيويتها استطاعت أن تواكب ثقافات العالم الجديد فى توجهها إلى التخصص العلمي، وهو مطلب حتمى فى عصر الثورات العلمية وتراكم المعرفة؛ الأمرالذى يحتاج – بدوره- قدرة واعية على المنافسة والإجادة والاستيعاب مع المشاركة والابتكار، من هنا كان التوجه إلى التخصص العلمى الدقيق موقفًا عصريًّا حضاريًّا، لعلنا نستطيع من خلاله الوصول إلى الصيغة المثلى فى وجود الطبيب الممتاز والمهندس المتمكن والفنى الواعى بدقائق حرفته، والعالم المفكر الملم بجوانب تخصصه وهو مطلب عصرى وواقعى فى غاية الأهمية، ولكنه يظل فى حاجة إلى التثاقف والتلاقى مع الموسوعية فى توظيف العلوم المساعدة.

وحتى نقرب المسافة بين فضل القدماء ومطلب المعاصرة، تظل العلوم البينية والقراءات المساعدة مدخلًا مهمًّا وضروريًّا وعصريًّا أيضا فى بنية المثقف العربى

وتشكيله بصورة صحيحة، فمن الطبيعى أن يتهيأ له من المادة القرائية التثقيفية ما يساعده على اصطناع مزاوجة أمينة وصادقة فى الإلمام بتاريخ العلم (المتخصص) وفلسفته وأهدافه وبرامجه وإنجازاته، وبين دائرة أو حتى – دوائر – التثقيف العام الذى يظل – أو ينبغى – مطلبا حتميا لاستكمال المشهد الثقافى الصحيح، وإلا فمن غير المنطقى أن نجد طبيبا يتلعثم فى لغته، أو لا يستطيع توصيل الفكرة، أو النظرية أو المعلومة، أو نجد طبيبا لا يهمه – مثلا – معرفة دور الرازى وابن سينا وابن الهيثم وابن النفيس فى تاريخ الطب، وهكذا تكون المادة القرائية المتاحة قادرة على التأصيل لمثقف موسوعى لا على طريقة القدماء، فهذا مطلب صعب المنال، ولكن – على الأقل- قريبا منهم احتراما لدائرة التخصص من جانب، وإيمانًا بتداخل العلوم وتكامل انسجتها وبنائها الإنسانى من جانب آخر، فالثقافة كل لا يتجزأ، ولكن مطلب التخصص يظل واردًا مع اتساع دائرة المثقف إلى ما سواه من اهتمامات، تظل مكونًا أساسيًّا من مكوناته دون انفصام أو قصور.

٢

الأصل : فى ثقافتنا " الحوار مع الآخر "

يبدأ المنطلق الثقافى الآمن من درجة الانفتاح على الآخر، واحترام الرأى المضاد، وفتح قنوات مشتركة للحوار، أخذًا وعطاءً، بعيدًا عن التعصّب والانغلاق، وبمنأى عن النرجسية أوالهيمنة والتسلط.

والحق أن المسافة بعيدة بين قضية الصراع ومستويات الحوار، وهو ما تشهد به ثقافتنا العربية دون انحياز لها، أو ادعاء حولها، أو مزايدة عليها، فحين نحتكم إلى التاريخ عبر رواياته وأخباره وشواهده ونصوصه يزداد الأمر جلاء وإبهارًا إزاء عدة معالم، نقرأ منها مبدئيًّا :

أولها : أنها ثقافة حوارية من الطراز الجيد تقبل التعددية، وتنطلق من الاختلاف، وتنتهى إلى التسامح والتفاهم مع الآخر قبولا أو جدلًا، دليل ذلك تعددية المدارس التى كانت الأصل الذى نهضت على أساسه ثقافتنا فى كل فروع العلم وساحات المعرفة، بين مدارس المحافظين والمجددين، مدارس اللغويين والفلاسفة، أهل النص وأهل الرأي، مدارس المتن ومدارس السند، علوم الأوائل والعلوم المترجمة، قضايا القدم والحداثة، الوساطة والموازنات، والأشباه والنظائر، وكذلك كانت حوارات النقاد، الزهاد والزنادقة .. إلخ.

صحيح أن صراعًا ما قد نشب بين بعض تلك المدارس، وتجلت بعض صوره فى منطق الهجوم أوالدفاع، ولكن المؤكد – أيضًا – أن ثمة مصالحة

معرفية قد قبلت تعايش المدارس المتنافسة، فوصلنا تراثها وفكرها فكان حواريًّا قبل أى اعتبار آخر ولا أدل على ذلك من تجاوز قلم الترجمة فى دار الحكمة التى أسسها الرشيد فى دار السلام(بغداد) مع علوم الأوائل، التى مال علماء العربية إلى تدوينها فى تلك الفترة.

ثانيها : أنها ثقافة إنسانية بدأت من الإنسان وانتهت إليه، فلم تعرف الانشغال بالأجناس، أو مولد العلماء، قدر انشغالها بثقافاتهم، ونشأة الفكر لديهم، ودليل هذا ما تمتع به علماء العصر العباسى - مثلا - ومبدعوه من جمع رائع بين موروث البادية العربية فى صفائها ونقائها وبين ضجيج الحضارة العباسية فى صخبها الحضارى موزعا بين عناصر عربية، ومشاركات فارسية ويونانية وهندية وغيرها، لينتهى الأمر لصالح البعد الإنسانى فى ثقافتنا، لأنها ثقافة الحوار مع الآخر، فكان معظم أقطابها من غير العرب مولدًا، وهم عرب بلغتهم وتكوينهم ومصادر فكرهم، ظهر منهم حماة العروبة، والمدافعون عن تاريخ العرب على طريقة الجاحظ وابن قتيبة وغيرهمـــا. أما العلماء فالحديث حولهم طويل يجب على الناشئة والشباب معاودة قراءته، ليعرفوا جوهر الأدوار العلمية فى ثوبها الإنسانى الراقراق من لدن موسوعية ابن سينا، إلى الخوارزمي، والرازي، والجرجاني، والبخاري، وابن حيان وابن الهيثم، وابن النفيس، والكندي، والفارابى وغيرهم .

فلو كانت ثقافة صراع أو تعصّب لشُغلت بمعارك فرعية، ولم تقدم للإنسانية هديتها الكبرى بمعزل عن فكرة الأجناس والانتماءات والأديان والمذاهب حين تكلم العلم بالعربية على مدار ثمانية قرون من عمر الزمان، علّم فيها الإنسان كيف يكون إنسانًا.

٣

ثقافة الاختلاف وقبول التعددية

منطق الأشياء بذاته وفطرته يبدأ من الاختلاف لينتهى إليه؛ ذلك أن التعددية تظل أصلًا للأشياء، وجزءًا من حكمة نظام الكون الذى أعده إله واحد، ثم قضى بانعدام الوحدانية إلا له، وما عداه – سبحانه – فهو تعدد بتعدد الموجودات، بين خير وشر، فضيلة ورذيلة، حق وباطل، جمال وقبح، نور وظلام، ليل ونهار، رجال ونساء، ذكور وإناث فى بقية الكائنات، أحياء وجمادات ... إلخ.

وظلت التعددية المدخل الطبيعى لمسيرة الكون، وبقى الاختلاف لغة معيارية ترفض الجمود والانعزالية والتقوقع والانطوائية، بل بقى الاختلاف أصلًا للحوار ومدخلا إلى تقدير الآخر، وتعزيزًا لمستويات الصراع وأطرافه؛ ذلك الصراع الذى ظل حاكمًا لمقاصد الحياة البشرية على مدار حركة التاريخ، وهو مطروح أصلًا من منظور الاختلاف والتضاد بين الأشياء، منذ صراع الخير والشر ماثلَيْن فى مقتل "هابيل " على يد أخيه قابيل، إلى تواصل أشكاله وأطرافه فى الصراع الطبقي، بين الغنى والفقير، بين القيم والانحلال، بين الحرية والاستعباد، بين المطلق والنسبي، بين العام والخاص، وهو ذاته الصراع بين الحياة والموت، بين الفناء والخلود، بين الواقع والوهم، بين العاطفة والعقل، إلى غيرها من مرتكزات الـمُكوّن الإنسانى المكون فى منظومة الوجود، والضامن لاستمرارية معترك الحياة.

من هنا تبدون ثقافة الاختلاف دافعًا قويًّا لاحترام سنة الوجود، وضامنًا أساسيًّا لسيرورة الأشياء منذ دفع الله الناس بعضهم ببعض، وخلقهم شعوبًا وقبائل

ليتعارفوا، ومنذ أقرَّ الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام بالرحمة فى اختلاف أئمة الأمة، ومنذ فتح الإسلام باب الاجتهاد فأثاب من أصاب بأجرَيْن، ومن أخطأ بأجر، مؤكدا بذلك تقدير منزلة العقل البشري، واحترام الفروق الفردية فى رؤية الأشياء.

من هذه المبادئ والمنطلقات يتوجب قبول التعددية والاختلاف، بعيدًا عن التشنجات والحصار العقلي، أوالمصادرة الفكرية على منطق الآخر أو المزايدة عليه، حيث يجب السماع والوعى ، ثم تحليل القول قبل إصدار الأحكام، وكذا قبل التشبث بالرأى الذى قد يفرضه تضخم الأنا أو يطرحه وتوهج الذات، أو يهيمن عليه منطق الاستعلاء.. وبقياس إبداعى بسيط اشتد الصراع واتسعت دوائره بين المدافعين عن قصيدة النثر الحديثة وبين حماة التراث الذين يذودون عنه من باب الإحياء والتجديد والإضافة والابتكار، وهو صراع يمكن أن يهدأ انطلاقًا من قراءة فصول التاريخ فى تعايش الأنواع الأدبية فى مصالحة وهدوء على ما فيها من التعددية، بين الملحمة والشعر والمسرحية والأسطورة، ثم القصة والرواية والأقصوصة، وهى التعددية الواردة حتى فى شعرنا القديم ذاته، بل حتى فى أخص ملامحه التى انطلق فيها من ستة عشر وزنًا، تمخض عنها إبداع الشعراء قبل مسعى الخليل إلى جمعها وتصنيفها، وقبل استكمال الأخفش لها بالبحر السادس عشر.

وحتى فى تصانيف الأوزان ظهر فيها التمام والاجتزاء من خلال المجزوءات والمشطورات، وكان من قبله الاختلاف بين القصائد والمقطعات، وبين الفصيح والزجل، وبين القصائد النمطية والموشحات .. إلخ.

هى التعددية ذاتها الواردة فى حركة الفنون مع تعدّد الأدوات، وتنوّع صيغ التشكيل الجمالى بين فن الكلمة مدخلًا للإبداع المكتوب، وفن الصوت فى الموسيقى، وفن اللون فيما تجود به ريشة الرسام.

انطلاقًا من هذه المزاوجات والثنائيات- وتأسيسًا عليها- أيضا - يظل

الاختلاف مدخلًا آمنًا لاستمرار الحياة، وجزءًا لا يكاد يتجزأ من مقوماتها، حيث تعايشت مدارس التجديد مع مدارس المحافظين، وتلاقت مدارس النقاد مع مدارس الشعراء سلبًا أو إيجابًا، وكان هذا هو المدخل الفاعل لقبول الآخر، حيث يبقى منه الصالح، وينتهى غيره، طبقًا للقياس الكونى للصلاح والبقاء حول الزبد الذى يذهب جفاء، ليبقى ما ينفع الناس ماكثًا فى الأرض.. وهكذا تأتى الأصوات الجوفاء التى طالما طرقت واستهلكت فى معترك مفتعل حول رغبة خصوم اللغة فى النيل منها، فانتهت الأصوات وتلاشت النداءات، وعاشت اللغة عبر الأجيال، لاسيما حين ذاد عنها حُماتها وحراس مناهجها دون إفراط أو تفريط، ودون انغلاق أو جمود.

٤

نحو التأصيل لمفهوم المشترك الثقافى

لم يعد الوقت ولا المرحلة تسمح باجترار مفردات الصراع الحضارى التى ثبت فيها التجاوز للحقائق، ولا حتى مفردات الحوار باعتبارها النموذج الأفضل للتثاقف ولقاء الأفكار، وتجانس المواقف؛ ذلك أن البحث فى دائرة المشترك الإنسانى قد تبدو أكثر فائدة من قبيل التأصيل لكل ما هو إنسانى جامع بين البشر بعيدًا عن التقسيمات المصطنعة بين الأجناس، وأهل الأديان، وعبر الزمان والمكان.

يبدو المنطلق الأساسى فى المشترك مسجلا فى النص القرآنى الكريم فى قوله تعالي: "يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثي، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا" صدق الله العظيم؛ حيث إن التلاقى فى الأصل واحد ووارد فى وحدة الخلق، ثم جاءت التعددية مدخلًا ضامنًا للعودة إلى المشترك فى باب التعارف، وتوظيف لام التعليل (لتعارفوا).

ويمتد المنطلق عبر جوامع الكلم فى جمل موجزة، حدث بها الرسول ﷺ الناس جميعا فى حجة الوداع، حين خاطبهم قائلًا:

أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب، ليس لعربى فضل على أعجمى إلا بالتقوى ، أكرمكم عند الله أتقاكم.

فهى إذًا وحدة المعبود الخالق، ثم وحدة الأصل والنشأة، ثم وحدة المصير والمطاف وبينهما رحلة التعددية المنتهية إلى منطق (الكل فى واحد).

ولنسمح لأنفسنا – مؤقتًا- أن نستعير من توفيق الحكيم شعاره فى "عودة الروح"، التى طبقها على المصرى القديم والمعاصر من حيث البحث عن الرمز والمعبود للالتفاف حوله تحت هذا الوازع النفسي، حتى وجدنا الظاهرة تمتد إلى الإنسان باعتباره إنسانًا، له فكره وملكاته وقدراته وإبداعه، وله أيضا تفرُّده وتميزه ومواهبه التى يكمل بها عطاء الآخر؛ فهذه التكاملية تظل شاخصة فى منطق الأشياء منذ نبه أفلاطون إلى روح الوطن وجسده بين الفلاسفة وأصحاب الحرف اليدوية، وهى التكاملية ذاتها التى تحكى فصولا من قصة الإنسان عبر صراعه مع الكون والطبيعة، وحتى مع نفسه ومع أخيه الإنسان، لينتهى بإرادته- أو حتى دونها- إلى صناعة هذا التكامل، أو الخضوع لذلك المشترك بمساحاته بكل روافده الحضارية والثقافية والدينية، مع تواصل خبرات الشعوب، وتبادل القيم والمنافع، وتبادل صيغ الدفع والوعى الإنسانى بكل ما يتطلبه من نبذ الخلاف، والاندفاع إلى منطق التلاقى والتقارب.

من هنا تتحول فرضية المشترك الثقافى إلى واقع وتجربة، يجب التوجُّه إليها والآخذ بها من قبيل الدرس الموضوعى القراءة المنهجية، والتوصيف الصحيح للحقائق، بعيدًا عن الانحياز لفكرة مسبقة، أو الانقياد خلف منطق التعصب، والعنصرية لمن يرون فى أنفسهم نمطًا وبقية البشر من نمط آخر.

لعل البحث فى هذا السياق يأتى مدعومًا من طبيعة الفكر الدينى ذاته عبر منطلقاته الكبرى الأصلية من وحدة المصدر، وتوحيد الإله الواحد الأحد فى كل الديانات السماوية إلا ما ورد من باب التجاوز أو الافتراءات، وهذه لها شأن آخر، وسياق مختلف على غرار ماورد فى المذاهب -وليس الأديان- من باب الثنوية، أو الشرك فى الألوهية المطلقة، تلك التى انتهت إليها الفطرة السليمة للبشر فى عبادة الخالق وليس المخلوق، الذى لا طاعة له فى معصية الخالق الأعظم جل شأنه.

فى عباءة الإسلام دعوة صريحة إلى وجوب الإيمان بكل الرسل والرسالات " لا نفرِّق بين أحد من رسله "، وهو استكمال الإيمان بالله وكتبه ورسالاته؛ الأمر

الذى يجعل الإسلام بابًا واسعًا لطرح قضية المشترك الثقافى فى دعوته للإصلاح والأخوة والمساواة، والتكافل والتكامل، والشورى ... إلخ.

وفى عباءة الثقافة الإسلامية، كان هذا المشترك الذى اندمج فيه العربى مع أخيه الخوزى مع البخارى مع الخوارزمى مع الجرجانى دون تفرقة، ولا اعتراف بحدود الإقليم والمكان، ولا حد النشأة والميلاد، فكانت الثقافة هى البوتقة الجامعة بين العرب وكبار مثقفى الأمم المشاركة فى بنية منظومة حضارتهم على غرار ابن سينا والرازى والإدريسى وابن الهيثم وابن النفيس وابن حيان وابن رشد والكندى والفارابى وابن خلدون وحازم القرطاجنى وغيرهم من أساطين الفكر الكبار، الذين صنعوا المشترك إنتاجًا وإبداعًا، ثم قاموا على بنشره وتوزيعه تأثُّرًا وتأثيرًا فى ظل منظومة حركة الترجمة، وتدوين علوم الأوائل، وقد تجاورا فى دار الحكمة منذ أنشأها الرشيد، ونماها من بعده المأمون فالتقى العربى والهندى والفارسى واليونانى والسريانى فى سياق المشترك الإنسانى فى أدق صوره.

إذا كان المشترك يمثل المسعى الحقيقى لتبادل الوعى الإنسانى وتجارب الشعوب والأمم فهو المنطلق الذى دفع عالمًا مثل الجاحظ -مثلا- إلى البحث فى درجة التميُّز بالفصاحة لدى العرب، والسياسة لدى الفرس، والحكمة لدى الهنود، فكان لقاؤهم مدخلا إلى صناعة التواصل وتكامل الخبرات فى سياق المشترك العقلى والوجداني، قبل أى تصور آخر للتصادم أو الصراع، أو محاولات القهر والظلم والاستبداد، فالأصل فى الأشياء هو ذلك الواقع الإنسانى الذى لا يعرف ضفافًا إلا من خلال تلك الشراكة الفاعلة بين قدرات البشر، وما يصدر عنهم من فكر وعلم وثقافة وإبداع، وحتى الحلم المستقبلى يدخل فى هذه الدائرة الواسعة وعمق وذلك السياق الإنساني، فهل آن لنا أن ندرسه بوعي، وأن نمتلك من الآليات والجهد ما يقدم فيه الجديد المتناغم مع متطلبى الفترة وإيقاع المرحلة!.

٥

حضور الثوابت فى سياق المتغير

ليس موضعًا للجدل ولا للشك أن نعترف بتدفُّع رياح التغيير على مستوى العالم كله فى منعطفات الفكر والمعرفة، والثورات العلمية، إلى جانب الأبعاد الاجتماعية، والسلوكية، والأخلاقية، والقيمية، والتربوية، والإنسانية، والمنهجية بوجه عام.

ولكن موضع الجدل أن تظل الأمم راسخة وقوية حين تستوعب عواصف التحوُّل بهدوء وروَّية وتأنٍ؛ حتى لا تضحى بتاريخها، ولا تفقد كياناتها، ولاتنقص من الثقة بفكرها وقدراتها، ولا تنتهى إلى السقوط تحت أى من ضغوط التهميش، أو مقاصد التسطيح، أو محاولات فقد الهوية، أو الرضا بالتبعية والاستسلام، أو بالتنازل والانكماش، أو ادعاء القناعة أو حتى الاستعلاء، أو تصور إمكانية الانعزال عن الآخر، أو التوقف عن مواكبة إيقاع المرحلة ومسايرة متطلب الفترة.

هناك تبدأ الأمة فى التعرُّف على حقيقة الخُطى، بعيدًا عن ضبابية الرؤية، أو غموض الطريق، أو الاكتفاء بالانبهار أو الدهشة أمام تحولات المشهد الحضاري؛ الأمر الذى يرتهن ـ فى الحقيقة ـ بدوافع التغيير ومنطلقاته الحقيقية قبل أى اعتبار آخر، مما يمكن أن نقرأه من خلال عدة دوافع واعتبارات :

الدافع الأول : يأتى من عمق الدوافع الذاتية الداخلية الأصيلة لصناعة المتغير، دون قهر أو استبداد، أو تبعية، أو ضغوط من قبل الآخر؛ وهنا تنطلق الشعوب والحكومات قاصدة تحقيق الإنجاز العصري، تحت مظلة التحديث والتطوير الفعلى باعتباره ضرورة وطنية وقومية، مع تجاوز النمطية والجمود، والعبور إلى جسر

التقدم فى اللحاق بعصر المعرفة وإنتاج العلم، ومتابعة ثوراته المتلاحقة، وتجاوز حدود الانكفاء على الذات، أو الاكتفاء بدور المتفرج حين يستورد ويستهلك فحسب.

والدافع الثانى : يطرحه وضوح الرؤية المجتمعية حين ترقى من خلال الوعى العام مع استشعار جوهر الانتماء، والاندفاع من الحرص الأساسى على الصالح العام، أو تجاهل الانقسام على الذات، أو الوقوع فى أى من دوائر الانفصام بين القول والإنجاز، بين النظام والفوضى، ومن ثم تقرير قيمة الخيوط الرفيعة الفاصلة بين دقائق الأشياء.

والدافع الثالث : تحكمه جدية الرغبة فى التغيير، سعيًا إلى الخروج من شرنقة السالب إلى ساحات الموجب، مع ترجمة النظرى إلى حيز التطبيق، وتحويل المتوقع إلى واقع، والطموح إلى نمط متجدد أساسه حسن النوايا، وسلامة المقاصد، ومعياره المرونة والفهم، واحترام الآخر، وتعزيز مستويات الحوار وتعددية أطرافه، وتعظيم الوعى المعرفى الدافع إلى توليد القدرة على خلق التنافسية، ومواجهة التحدى بمعيارية الإجادة، وتقدير المساءلة والمراجعة مع احترام نقد الذات، وتعدد قراءة الواقع من خلال إدراك حقائق ما قبل الانطلاق إلى آفاق المستقبل، إلا عن وعى حقيقى بآليات الاقتراب منه.

والدافع الرابع : يظل مرهونًا بحضور بالثوابت واستقرارها بدءًا من احترامها، دون جناية أو رفض، أو استهانة، أو تحقير، أو استخفاف، أو تسفيه، بل تقدير منزلتها جزءًا من أصالة الأمة وعلاقتها بأعرافها وقيمها وأصولها التى تنتهى ـ بالضرورة ـ إلى احترام المقدسات، مع تقدير التواصل والاستمرارية، والاعتراف بتجدد التاريخ، واحترام الرواد والشوامخ وتقدير المبادرات الجادة، تلك التى تظل داعية إلى القوة والتماسك بعيدًا عن التشرذم أو الانشطار، وبمنأى عن فكر الجزر المتباعدة، أو القسمة العشوائية، أو حتى المنظمة التى ربما تستهدف أمة، فتنال من وحدتها لأى من الأسباب.

والدافع الخامس : تعكسه القدرة على اصطناع مزاوجة هادئة وعملية بين ما يبدو متناقضًا فى ظاهره، أصيلًا فى جوهره، وهو التلاقى ذاته بين الذاتى والجمعي، بين الموروث والمعاصر، بين الثابت والمتغير، بين القول والعمل، بين المعلن والخفي، بين المرسل والمتلقي، بين المبدع والعالم، بين كل ما يتراءى أمامنا ـ من حيث الظاهر ـ متباعدًا، والحق أنه يحتاج إلى إعادة آليات الصقل المعرفى والضبط المنهجى القائم على الاستقراء والاستقصاء، مع تأكيد الإيمان بالبحث العلمى مدخلًا حتميًّا إلى معايشة الفترة، بمنأى عن ظواهر التخلف ومساحاته التى لابد من إدارة ظهورنا لها.

وبذا تظل الحقيقة المؤكدة أن الثوابت تظل قوية فى منعطف التغيير، إذا ما قويت تلك الدوافع التى تبدأ من أصالة الانتماء، لتنتهى إليه بكل قوة وبكل ما تعكسه من الثقة والتمكن، وسلامة التوجهات. وهذا يكفى لتحقيق كل الاعتبارات القومية المرتبطة بأصالة الشعوب دون افتئات على تاريخها، أو مزايدات على واقعها، أو استخفاف بقدرتها، أو امتهان لشأنها وكياناتها تحت أى من الظروف التى ربما تعوق مسيرة التقدم ـ مؤقتًا ـ ولكنها لا تعنى ـ بحال ـ تعطيل سياق المتغير.

٦

حريـة الإنسـان فى الثقافة العربية

لا يخفى على الباحث الموضوعى ما تمتع به أقطاب الثقافة العربية من حرية الفكر منذ فتح الإسلام أمامهم باب الاجتهاد، فمنح لمن أصاب منهم أجرَين؛ الأول لاجتهاده والثانى لنجاح اجتهاده، وأعطى للمخطئ أجرًا واحدًا جراء اجتهاده، بصرف النظر عن نتائج خطئه.

الحكمة هنا رفيعة المستوى، ومؤشر الدلالة من مؤشرات الحرية الحقيقية الدافعة إلى إعمال وانفتاح الفكر، انطلاقًا من الإيمان بالمشترك الإنسانى الذى زكَّته الثقافة العربية بما تميزت به من الرحابة والموسوعية، مع المرونة والقابلية للأخذ والعطاء تأثرًا وتأثيرًا، وعيًا بما تقدمه للآخر، أو تأخذه منه بعيدًا عن التصادمية والصراع، وصدورًا عن الحوار والتثاقف، فبدت ثقافة إنسانية بكل المعايير.

وانطلاقًا من حرية الإنسان فى اختيار معتقده ودينه، امتد المفهوم إلى طبائع منظومة القيم الأخلاقية والإنسانية التى يصدر عنها تحت شعار (لا ضرر ولا ضرار)، وتحقيقا لمبادئ التكافل والتكامل بما يحتاج تبادل الاحترام بين كل الديانات من خلال أصحابها، وكذا يأتى احترام الانتماءات دون الافتئات على أى من حقوق الإنسان، أو التقصير فى مساءلة التجارب الناجحة والفاشلة على السواء.

ومع انطلاقة هذه الحرية ووجوب قراءتها وتحليل مصادرها وأبعادها وحقائقها، يظل الباب مفتوحا للمشاركة فى إعادة المفهوم القومى لهذه الأمة التى حققت للبشرية أفضل إنجاز حضاري، أزاح ظلام العصور الوسطى حين نقلت العلم

والمعرفة إلى الآخر عبر جسور الترجمة ومعابر الثقافة من شرق على غرب، ويظل المطلب مشروعًا فى إمكانة تبنى مشروع المشترك العربى متعدد الفروع والأبعاد، بين لغة وفكر وأداب وتاريخ ومصير .

قراءة الواقع تدعو إلى البحث عن جوهر الحق العربى فى التعريف بصور الظلم والطغيان الذى أصابت من أرضه ووطنه ما أصابت مما ما يستحق المراجعة والتأمل؛ لاسيما إذا بدت القضية واضحة حول حقوق الإنسان فى الدفاع عن نفسه وعرضه وأرضه ووطنه، وحقه فى مواجهة التحديات ومتابعة إيقاع المرحلة، والاستجابة لمتطلب الفترة بما يمتلكه من آليات وأدوات وفكر.

لم تعد العزلة عن الآخر عملا مقبولًا ولا مطلوبًا، ولم يعد منطق الصياح أو الشكوى كافيًا لنيل الحقوق فى ظل تداعيات الظلم العصري، وتوالى الهزائم النفسية للمستضعفين فى الأرض، ممن ينتظرون الإنصاف إذا صدقت نوايا الإصلاح فى بناء رؤية قومية قوية تحت مظلة قانون عادل، أو مظلة تحترم فى الإنسان إنسانيته !

من منطلق حرية الفكر يبدأ التغيير الحقيقى فى منطلقات العمل الثقافى العربى حيث يمكن للأجيال أن تجتهد فى صناعة مزاوجات هادئة بين الموروث والمستحدث دون انشطار ذاتى أو انقسام على النفس، وفى إطار التفاعل مع المتغير العالمى حيث تتسع دوائر الثقافة العربية بعيدا عن الجمود أو التخبط، وبمنأى عن الاستسلام لهيمنة المشهد الإنسانى الدافع أحيانا إلى الخمول وصناعة التبلد، أوسقوط الجريمة بالتقادم؛ حتى لا تتحول جراح الأمة إلى جراح مزمنة يصعب علاجها، أو الخروج من محنتها.

من منطلق حرية الفكر يجب أن يصدع الرأى العربى بوجوب التفاعل الثقافى من منطلق الندية والتكافؤ، بعيدا عن الاستعلاء أو الاحتقار، وبمنأى عن التباهى بماضى الأنا، أو التماهى فى الآخر دهشةً أوانبهارًا، ففى كلا الأمرين ما يدعو إلى

التقاعس والتكاسل، وما يوقف فاعلية الإنجاز المبنى على حرية الإنسان فى صورتها الحقيقية.

لم يعد تسطيح مشكلاتنا المجتمعية أو الثقافية أو القومية أمرًا مقبولًا، فربما ينتهى إلى الانهزامية وإماتة القضايا، أوتمييع المواقف، بما لا يتماشى مع تاريخ أمة علَّمت الإنسان فى أنحاء الأرض كيف يكون إنسانا، باحترام حقوقه وواجباته ومواثيقه وفكره وإبداعه.

فهل آن لنا إعادة قراءة تداعيات حرية الإنسان فى منظومة فكرنا العربى انطلاقا من اجتهادات أساطين العلم العربي، الذى أجاد التكلم بالعربية على مدار ثمانية قرون من عمر الزمان، فبات واجبًا أن نفيَ له بحق الانتماء والمراجعة والتواصل بما يضمن صحة المسار وجدية التوجهات، ومصداقية الأداء؟!

٧

العرب ونهضة الحضارة الأوربية

(حوار أم صراع)

بدأ عصر النهضة فى أوربا مع تقدم الصناعة، وظهور الآلة، ومعها ظهرت الطبقة الوسطى (البرجوازية)، التى احترمت فى الإنسان فرديته وطاقاته وقدراته، بدءا من تحريك عجلة الإنتاج، إلى حريته فى السوق إلى حريته فى ساحات الفكر والإبداع.

هذه النهضة توازى ما شهدته الثقافة العربية فى عصور ازدهارها منذ القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادي) وعلى مدى ثمانية قرون من عمر الزمان، حتى لنستطيع القول - بلا مزايدة ولا تعصب ولا مغالطة تاريخية - أن عصر النهضة لدينا كانت له أصول ومقومات، يمكن طرحها من خلال عدة اعتبارات وحقائق :

أولًا: منذ أنشأ هارون الرشيد الخليفة العباسى المرموق دار الحكمة، والتى نهض ابنه المأمون على توسيعها وتعظيم دورها فى الثقافة العربية وغير العربية، أسَّس فيها الرشيد قَلَمًا للترجمة إلى جانب علوم الأوائل من دينية وبلاغية ولغوية ونقدية وتاريخية، فتحولت إلى حضارة إنسانية واسعة ورحبة، لا تعرف الحواجز ولا تعترف بالحدود، ولاتتعصب لدين أو عنصر أو جنس، بل فتحت نوافذها على كل حضارات العالم القديم ولغاته، منذ ترجمت من وإلى الهندية والفارسية واليونانية والسريانية، ومنذ اعترفت بالآخر بدليل ما نقلته إليه، أو نقلته منه بمعيارية التسامح، والانفتاح، المطلق بلا حدود.

ثانيًا: أنها بدت حضارة وثقافة حوارية من الطراز الأول، لم تقم على التصادم، ولا الصراع؛ دليل ذلك أنها عرفت امتدادًا واسعًا من غرب الدنيا فى إسبانيا القديمة (الأندلس) إلى أسوار الصين شرقًا، مع وصول قوافل التجارة والتبادل الاقتصادي، فكانت صانعة حوار متعدد الأركان، يدعو إلى التكامل والتلاقي. ويتجاوز الانقطاع أو الانفصام أو العزلة، ودليل صدق حوارها أنها لم تفرق بين المسلم والمسيحى واليهودي، بقدر ما أخذت من علم كل هؤلاء بصرف النظر عن المعتقد والدين؛ فالإسلام يحترم كل الأديان، ويترك للبشر حرية العقيدة، ولا يفرق بين الأجناس، فكل البشر عند الله سواء تحت راية الروابط الروحية وحسن الخلق وطبيعة المعاملة، واحترام الثوابت والمقدسات، وتقدير علاقة الإنسان بربه باعتبارها علاقة خاصة، مع الاعتراف بتعددية الصيغ الاجتماعية فى علاقات البشر بعيدًا عن القهر والإذلال والاستعباد، ورفضًا لاحتلال للأرض، أو العدوان على الآخر، أو المساس بدمه أو عرضه أو شرفه أو وطنه، فالكل فى حق الحياة سواء فى ظل سماحة العقيدة ورحابة الدين.

ثالثًا: أنها ثقافة موسوعية؛ انطلقت بين ساحات الفكر والإبداع معًا، حيث يخطئ من يظن أن ثقافتنا العربية وقفت عند حدود الشعر والإبداع؛ نعم كانت كذلك فى العصور الأولى قبل التدوين عبر المرحلة الشفاهية، وقبل حالة الاندماج والتفاعل الحضارى التى بدأت مع عصر الكتابة المنهجية والتدوين المنظم، وظهور المكتبات وتبادل المؤلفات، والاندفاع إلى الجمع والتصنيف والشرح والتحليل والتعليق، حيث دخلت مرحلة مهمة فى ضمان تواصلها عبر الأجيال فكانت ثقافة فاعلة قادرة على الاستمرارية والبقاء من جانب، والاندماج الفاعل فى فكر الآخر من جانب ثان.

وفى مرحلة التدوين، تحولت إلى ثقافة علمية تنهض على التعددية وتقوم على المنهج التجريبى والاستقرائي؛ على النحو الذى سجلته ريادة ابن سينا - مثلًا - فى

الطب والقانون والإبداع الشعرى والفلسفى والتاريخ، فنستطيع أن نقرأ فيه موسوعية الطبيب الفيلسوف الشاعر المبدع الناقد والمؤرخ. وهو ما أوجزه الجاحظ ـ مثلًا ـ فى حواره حول طبيعة المثقف العربى، الذى يجمع من كل علم بطرف دون انخراط فى تخصص دقيق قد يعزله عن بقية المعارف والعلوم، بقدر ما يحيط به منها، وما يستوعبه من مقوماتها.

وكانت موسوعية عالم مثل ابن سينا وأديب من نوعية الجاحظ نماذج عليا تحققت لها نظائر لدى كثير من الأعلام فى الرياضة والطب والفلك والهندسة والكيمياء والفلسفة، على غرار ما نعرفه من أسماء أبى موسى الخوارزمى فى الرياضة، أبى بكر الرازى فى الطب، الحسن بن الهيثم فى طب العيون، ابن النفيس فى الدورة الدموية، جابر بن حيان فى الكيمياء، والفارابى والكندى وابن رشد وغيرهم من أقطاب الفكر الفلسفي، إلى جانب ارتقاء حركة العلم وتزايد أصحاب النظريات والتجارب العلمية الرائدة.

رابعًا: أنها ثقافة المنهج والوعى والإدراك والبحث فى جوهر الأشياء وحقائقها، فقد تحولت من مجرد معارف وأفكار، ومن تجارب أساسها التكرار بين الصواب والخطأ إلى ثقافة علمية جادة يحكمها المنهج من خلال السعى إلى الإضافة والتجديد والابتكار؛ عبر حركة الترجمة التى فتحت آفاق الذاكرة العربية على ما يدور فى ذهن الآخر، وما تطرحه ذاكرته واجتهاداته، فأدركت ما وراء المشترك الثقافى من علاقات وأبعاد، فأصبحت ثقافة علمية تحترم ذلك الآخر، وتقدر دور الاجتهاد، وتعظم الإضافة والمشاركة فى كل ما تأخذه من قبيل التحديث والتجديد، فبدت - بهذا المعيار - ثقافة التعددية والوحدة معًا، وحدتها إنسانية، وتعدديتها تقدر الفروق بين الأفراد، وكذلك الفروق بين الأمم على نهج الجاحظ منذ سجل للعرب نبوغهم وتفوقهم على أمم الأرض فى الفصاحة والبيان.

كما سجل لليونان تفوقهم فى المنطق والفلسفة، وللفرس تميزهم فى السياسة وفن

الحرب وأساليب القتال، وللهنود نبوغهم فى الرياضة والفلك والحكمة؛ الأمر الذى يدعو إلى تأمل هذا التكامل الإنسانى الرائع فى قراءة الأشياء دون قطيعة أو انفصام من خلال تقدير أهمية المشترك الإنسانى فى صناعة التكامل المعرفى والتلاقى العلمى الذى لعبت فيه الترجمة دورًا بارزًا، ولعبت فيه أيضا المعابر الثقافية الكبرى أخطر الأدوار، على نحو ما كان من دور صقلية كمعبر ثقافى عربى إلى الأندلس، وهو ما تجلى فى خريطة الآداب العربية والغربية، التى لمع فيها تأثر دانتى الايطالى فى الكوميديا الالهية - مثلًا – برسالة الغفران للمعري، أو رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد الأندلس؛ مما يؤكد فكرة الأخذ والعطاء؛ وأهمية التأثر والتأثير دون انغلاق أو تعصب أو انطواء على الذات على الإطلاق.

خامسًا: تعددية الحركة العقلية لدى العرب أنفسهم منذ لعبوا دور الفاتحين، ومع هذا تجلى منهم الحرص على الإفادة من ثقافات الشعوب المفتوحة وحضاراتها، فأنشأوا مدارس التعريب التى سعى إليها القوم يتعلمون العربية ويُعلمون بها، ولاأدل على ذلك من إسهاماتهم الرائعة فى تنمية الثقافة العربية ونضوجها من خلال ممارسات أصيلة يحكى الجاحظ – مثلًا – بعض جوانبها فيما يراه من فصاحة أبى موسى الأسوارى بالفارسية والعربية من مجلسه بين القوم مفسرًا لآيات القرآن الكريم حيث يفسر الآية بالعربية للعرب عن يمينه، ثم للفرس بالفارسية عن يساره فلا يُدرى بأى اللسانين هو أبْيَن.

وهو القياس الذى تعكسه مشاركات غير العرب فى بنية الثقافة العربية بعمق، وإلا فأين نضع – مثلًا – جهود البخارى فى صحيح الحديث النبوى الشريف، وأين نضع الجهود الرائعة لعبد القاهر الجرجانى فى دراسة أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز؛ حتى ما كان من سيبويه نفسه حين أَلَّف الكتاب فى النحو العربي، إضافة إلى دور أولئك العلماء الكبار فى صيغ الدفاع عن العروبة ضد تيار الشعوبية الذى علا صوته لدى بعض الفرس من الشعراء والكتاب على طريقة بشار وأبى نواس والهيثم بن عدى وغيرهم، فإذا بالجاحظ يتصدى لهم، وكذلك ابن قتيبة وغيره ممن

أعادوا إلى الثقافة العربية اعتبارها من باب الاعتراف بفضلها فى تكوينهم، وتأسيس أصول فكرهم وعلومهم ومناهجهم.

سادسًا: أنها ثقافة المدارس العلمية الكبرى، وكذلك كانت فى مهدها منذ تأسست مدرسة الصنعة الجاهلية (عبيد الشعر) إلى مدرسة البديع العباسية لدى مسلم بن الوليد، ثم أبى تمام ثم ابن المعتز، إلى مدرسة روميات الشعراء من مسلم بن الوليد إلى البحترى وأبى تمام وابن الرومى إلى المتنبى وأبى نواس والشريف الرضى وغيرهم من كبار شعراء الأعصر العباسية. وهى المدارس العلمية ذاتها التى أسس لها – مثلًا – ابن حيان فى تقدم علم الكيمياء على يديه عبر النظريات والتجارب والنتائج، وما كان من كتابة أكثر من مائة رسالة ترجمت إلى اللاتينية، ومثل كذلك كان كتاب الحيوان لأرسطو والذى ألف على أساس منه " الجاحظ" كتابه الحيوان أيضا. فلم يكن دور ابن حيان أقل منزلة فى صناعة المدرسة الكيميائية عن دور أرسطو فى المنطق، ولم تكن رؤيته للمنهج العلمى بمعزل عن تأثير أستاذيته فى أفكار جاليليو وفرانسيس بيكون ونيوتن وغيرهم.

كانت جهود طب جالينوس مؤثرة بالتأكيد فى طب يوحنا ابن ماسويه فى علم التشريح، فى مقابل ما تركه الرازى من كتب ترجمت إلى اللاتينية منها كتاب الحاوى والمنصورى وكتاب الجدرى والحصبة وغيرها.

وكذا كان ما تردد حول الجاذبية عند ثابت بن قرة وموسى بن شاكر وغيرهما، ومثله كانت تجارب البيرونى فى الحيل وعلم السوائل فى مقابل ما نقله العرب عن أرسطو فى الفيزياء وكتاب الحيل الروحانية وغيره.

سابعًا: أن الثقافة العربية بهذه المعيارية تحولت إلى حلقة وصل ضامنة للتواصل الإنسانى المعرفى بين شرق وغرب، بدليل ما قدمته للبشرية من عطاءات ينبغى أن تسجل لها منذ ترجم العرب كتابى أرسطو فى الخطابة والشعر، وبنوا عليها كثيرًا من الأفكار والتعليقات والآراء، إلى ما نقلوه من أدب ابن المقفع وفكره، إلى ما طوره المعلم الثانى "الفارابي" عن الفكر الأرسطى والأفلاطوني..

النماذج كثيرة ودالة على أصالة المشترك الثقافى بين العرب وبقية الأمم التى نقلوا عنها، وطوروا، وأضافوا، فاحتفظوا بتلك العلوم وجددوا فيها حتى تم نقلها عنهم عبر عصور الظلام إلى الغرب الأوربي، الذى لعب دورًا رائعا فى تحديثها وتجديدها والإضافة إليها، لاسيما حين وقعت الأمة ضحية حملات استعمارية شرسة صرفتها عن التقدم العلمي، وعن الاستمرار فى البحث عن المعرفة والتنمية البشرية، إلى محاولة الدفاع عن الأرض وطرد المستعمر الأجنبى منها، لاسيما أن بعض موجات الاستعمار آثرت نهب الكتب والمخطوطات، ونقلتها إلى مكتبات الغرب، إلى جانب صور أخرى من الفوضى الاستعمارية التى أحرقت كثيرًا من الكتب، واتخذتها معابر للخيول عبر نهرى دجلة والفرات. ومع هذا ظلت الثقافة العربية متماسكة وقوية، وبنى عليها الآخر جسور التطوير والتحديث إلى أن قامت حركات التحرر العربية، وبدأت تتنفس الصعداء مرة أخرى لتستعيد تراثها ومخطوطاتها من مكتبات الغرب، وتقيم عليها دراسات عصرية تتسق وإيقاع اللحظة، وطبيعة المرحلة على المستوى الفكرى والمنهجي.

وبعد، فهذه مجرد لمحات وفصول من مداخل ثقافتنا العربية، وبيان لبعض دورها فى عطاءات عصر النهضة الأوربية، إلى جانب ما تمتعت به من ازدواجية احترام الموروث والقدرة على استقطاب الجديد، مع تجدد العطاء والاستعداد للمشاركة والمتابعة والمراجعة، مما جعلها ثقافة حوارية من الطراز الأول .. أما عن واقع الثقافة العربية، فإنه يحتاج صحوة أخرى جديدة، تعيد إلينا تراثنا لنتحاور معه تجديدًا وابتكارًا وإضافة، ونهتم بمخطوطاتنا العربية، لا للإبقاء على الماضى أو التفاخر به، ولكن من أجل تسجيله ودراسته واتخاذه مدخلًا إلى إعادة قراءة الواقع والاندفاع إلى المستقبل، مع تعظيم المادة القرائية التراثية من نفس المنظور، وتعميق الدراسات المهتمة بمشكلات الثقافة العربية والغربية، وصولا إلى الأمل المتوقع فى إنتاج العلم وتوطين المعرفة تجاوزًا لمرحلة الاستهلاك والاستيراد التى لابد من تجاوزها فى ظل مواجهة التحديات المعاصرة بكل أبعادها وملامحها.

٨

ثقافتنا فى عالم متغير

من المؤكد أننا نستشعر – بصدق – خطر التيارات الفكرية المتدافعة من حولنا فى كل اتجاه، بما تحمله من دلالات ومؤشرات، وما تحكيه من فصول التحديات؛ الأمر الذى يستوجب منا الصحوة، ويتطلب اليقظة دون تردد أو تراجع أو تكاسل.

وتنطلق البداية من الاعتراف بوجود المتغير فى صورته العصرية، بما تعكسه المشاهد من سرعة الإيقاع، حيث انتهت عصور السلحفاة، وبدأت مراحل الثورات العلمية تتوالى وتتلاحق بغير انقطاع وبدأت طرائق المعرفة تتجدد، وتراكماتها تتزايد وتتوالد، وبدأت لحظة الحساب بقدر الملكات والقدرات والمهارات، وبقدر ما يمتلكه الفرد من استعداد للانخراط فى معسكر المجتهدين فى مقاومة تيارات الانهزامية والانكسار من جانب، والخلاص من تيارات الفساد والإفساد من جانب آخر.

وبدا المسكوت عنه فى الظهور والتجلى من خلال القراءة الشفافة للواقع ونقد الذات، وظهر أخطر ما فى عيوبنا فى تحقيق الرسالة الثقافية فى صورتها الجادة، لاسيما إذا ازدحمت المرحلة – وهى مزدحمة بالفعل- بتدفُّقات سموم السماوات المفتوحة عبر الفضائيات، فأصبح المرسل إليه ضحية لما يتلقاه، وبات عاجزًا حتى عن مجرد الخروج من عباءة ما يُملى عليها منها، إلا فى حالة واحدة إذا وجد من الحصانة والتعقيم من خلال الانفتاح على ثقافته القومية اعترافًا بها، وتعرُّفًا عليها، وفهمًا لها، ووعيًا بتحولاتها ومنطلقاتها.

والحقيقة أن ثقافتنا العربية قد تميزت فى عصر ازدهارها الوسيط بأعلى درجات الإنسانية، حيث صدرت عن منظومة قيم ومثل عليا، تحترم فى الإنسان إنسانيته، وتعترف بقيمة المشترك الثقافي، وتنطلق إلى التأصيل لكل حقوق الإنسان بصرف النظر عن انتمائه العنصري، أو المذهبي، أو العقدي، أو السياسي، فبدت ثقافة مفتوحة على الآخر، احترامًا واستيعابًا، بعيدًا عن النرجسية والاستعلاء من جانب؛ وبمنأى عن الاستسلام والتراجع والتبعية من جانب ثان، وبعيدًا أيضًا عن الانبهار والدهشة من جانب ثالث.

ومع إنسانيتها بدت ثقافتنا موسوعية، تحترم مقومات التخصص العلمي، وتنطلق عبر آفاقه إلى رحاب الأعماق البينية، التى تأخذ من كل العلوم باعتبار الوحدة والتنوع معًا؛ وحدة المصدر من الفكر والوجدان البشري، وتنوع العطاء عبر كل العلوم وساحات الإبداع.

فهل آن لثقافتنا العربية - بكل هذه المقومات - أن تستعيد من ماضيها ما يضمن لها البقاء والتحديث أمام زحام موجات المتغير العالمى الهادف إلى تهميش القوميات، أو التهريج الرخيص على حساب أصالة الحضارات وكيانات الأمم والشعوب؟

وهل آن لها أن تأخذ من موجة المتغيَّر أفضل ما فيه من صيغ المعاصرة، مع المحافظة على ثوابتها ومقدساتها، التى تظل جزءًا لا يتجزأ - بحال - من كيانها وشخصيتها؟.

كل هذا ممكن إذا استيقظ أبناؤها فتنبهوا إلى وجوب الإصلاح والتغيير من الداخل، باعتباره جزءًا من طبيعة الأشياء؛ دون انتظار لأى طرح خارجي، أو الوقوع فى تبعية مفروضة تحت أى من المسميات.

من هنا يتجدد الخطاب الثقافى حين ينطلق من استشعار المسئولية القومية، وتعزيز منطق الانتماء، دون فقد صيغ الواصل، وآليات الاندماج مع الآخر؛ لاسيما إذا كان لثقافتنا مالها من فضل فى إكساب ذلك الآخر كل مقومات الفكر فى ظل

احترام منظومة القيم العليا التى صاغتها، وانطلقت منها بين مشرق الأرض ومغربها.

كل هذا ممكن بشروطنا إذا أحسنَّا فهم أنفسنا، وتوجهنا إلى نقد ذواتنا دون ادعاء جلدها، وهو الممكن إذا ما خلصت النوايا، وصدقت التوجُّهات فى خلق بنية ثقافية قوية تعرف موقعها الحقيقى على خريطة العالم، كما عرفتها فى عصور تقدمها وازدهارها قبل تحول عجلة التاريخ فى سياق الحملات الاستعمارية الشرسة، التى قضت عليها حركات التحرر الوطنى فاستطاعت أن تنقذ من تراثها وفكرها ولغتها وثقافتها أفضل ما فيها، وبات مطلوبًا منها أن تستكمل المسيرة بالقوة نفسها فى استيعاب تيارات التحديث والمعاصرة؛ حتى تظل محتفظة بموقعها المتميز على خريطة العالم المعاصر.